الزّوايا ودورها الديني والثقافي في الجزائر خلال العهد العثماني

The religious and cultural role of zawaya in Algeria during the Ottoman period

د. رشيدة شدري معمر [1]
جامعة البويرة- الجزائر
tavsanciksedri@hotmail.com

تاريخ الوصول./ :2019/02/24 القبول: 2019/06/19 /النشر على الخط: 2020/01/15
Received: 24/02/2019 / **Accepted**: 19/06/2019 / **Published online** : 15/01/2020

ملخص:

ارتبط ظهور الزوايا في الجزائر عامة بظروف سياسية وتاريخية واجتماعية، كالفراغ السياسي الذي نتج عن غياب السلطة المركزية، وتعرّض البلاد للغزو الاسباني إضافة إلى تعرضها لكوارث طبيعية كالقحط والجراد والفيضانات، فاستغل أهل الزوايا من مرابطين وشيوخ طرق هذه الأوضاع، وتحركوا من أجل ملئ الفراغ السياسي، وتعبئة المجتمع ضد الأسبان وتوفير الملاذ الآمن للأهالي ضد الغزو المسيحي ثم ضد السلطة العثمانية فيما بعد، ونتيجة لهذا نجد مؤسسة الزاوية قد لعبت –خاصة بالأرياف– دورا محوريا في هيكلة المجتمع الجزائري بعد ضعف السلطة المركزية دينيا واجتماعيا واقتصاديا وخاصة ثقافيا، بسبب افتقارها للمؤسسات التعليمية الأخرى، رغم أنها.

الكلمات المفتاحية: التعليم، الزاوية، المرابطون، التصوف، الطرق الصوفية.

Abstract :

The emergence of zawiya in Algeria in general, was associated with political, historical and social conditions, such as the political vacuum, that resulted from the absence of central authority and the exposure of the country to the Spanish invasion. In addition to its exposure to natural disasters such as drought, locusts and floods, people of the Zawiya like marabouts and elders took advantage from these conditions and moved to fill the political vacuum, mobilizing the community against the Spaniards and providing safe haven for the people against the Christian invasion and later against the Ottoman power. As a result, Al-Zawiya has played a pivotal role in shaping Algerian society after the weakness of central authority, religiously, socially, economically and culturally, because of its lack of other educational institutions.

Keywords: Education, zawiya, almoravides (marabouts), Sufism, brotherhoods (sufi tariqa).

[1] المؤلف المرسل: رشيدة شدري معمر الإيميل: tavsanciksedri@hotmail.com

مقدمة:

رغم ما انتشر في ذهن الكثيرين أن كلمة "الزاوية" تعني ممارسات وطقوس وتخدير لعقول الناس، وشعوذة ودجل مارسه أهلها تحت غطاء الدين، وباسم النسب الشريف والبركة والكرامة، وتقديس الأولياء الصالحين[1]. لكن التاريخ يشهد أن الزوايا في الجزائر هي التي حافظت على لغة الأمة ودينها وأخلاقها الإسلامية، إضافة إلى ما قامت به من جهاد سواء قبل الوجود العثماني أو بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، بحيث لا نكاد نجد انتفاضة أو مقاومة إلا كان على رأسها شيخ زاوية، فشيوخ الزوايا ومريديهم كانوا دون غيرهم السباقين إلى الجهاد ضد الغزو الأسباني في بداية القرن 16م، أو ضد الاحتلال الفرنسي، والمقاومات الشعبية لدليل على ذلك.

والملاحظ خلال العهد العثماني كثرة الزوايا وازدياد نشاطها بصورة ملفتة، لذلك فالإشكالية المطروحة ستكون حول أسباب وخلفيات ظهور الزوايا وانتشارها في الجزائر والدور الذي لعبته في مجال التعليم.

1 -تعريف الزوايـة:

لغة: ج، زوايا، وهي زاوية البيت وركنه، ونقول زوى فلان المال أي خبأه وأخفاه،[2] وتعني الجمع والطي ففي الحديث الشريف قوله (ص): "إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها.."، وهي تعني كذلك الانزواء، فالزاوية أخذت اسمها من الانزواء بمعنى انضمام البعض إلى البعض في حلقة الدرس.[3]

أما اصطلاحا: فالزاوية عادة تعني ركن البيت، أطلقت في بادئ الأمر على صومعة الراهب، ثم على المسجد الصغير أو المصلى،[4] فالزاوية: أصلها عبارة عن رباط، وهي مبنى يضم ضريح الولي أو الشيخ، وقبورا لأبناء وأحفاد الولي، وتضم كذلك مسجدا ومكتبة، وهي ملجأ للغرباء، منها ما هو مخصص للتعليم أو للعبادة واستقبال الزوار والفقراء. هي مؤسسة كاملة فيها المسكن والملجأ والطعام والعبادة، بعضها اعتبر مدارس عليا لمواصلة التعليم، الذي بدأه الفتية في الكتاتيب القرآنية.[5]

فالزاوية هي محل تلقى فيه الدروس للطلبة الكبار عكس المسيد أي الكتاب الذي يتعلم فيه الفتية القرآن الكريم، وتعتبر كذلك ملجأ يجد فيه الطلبة والعلماء الغرباء المأوى مجانا، أحيانا تكون ضريح عالم أو رجل صالح.[6] فهي عبارة عن مسجد لا مأذنة له ولا منبر، تضم الميضأة وضريح المؤسس أو أحد الأولياء الصالحين، تقام فيها الصلوات الخمس عدا الجمعة والعيدين، تلحق بها قاعات للخدمة، ولها شيخ وخدم وموظفون لرعاية المقيمين والوافدين عليها،[7] وهو تقريبا ما ذهب إليه "يحي بوعزيز" في تعريفه

---

[1]- حول (البركة، الكرامة...) وهذه الممارسات ينظر، رشيدة شدري معمر، السلطة الروحية والسلطة السياسية في الجزائر العثمانية 1518-1830، أطروحة دكتوراه، تاريخ حديث، جامعة الجزائر2، 2018م.

[2]- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت، ج07، ص 84.

[3]- محمد رزق عاصم، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، مصر، 2000م، ص 128.

[4]- م.ث هوشما وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، 1998م، ج17، ص 232.

[5]- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2008م، ج05، ص 110.

[6]- نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركيدار الحضارة، الجزائر.2006م، ص 166.

[7]- محمد عاصم رزق، المرجع السابق، ص 128.

للزاوية بقوله: "أنها عبارة عن مجمعات من البيوت والمنازل المختلفة الأشكال والأحجام تشتمل على بيوت للصلاة كالمساجد، وغرف لتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم العلوم العربية، وأخرى لسكنة الطلبة، وطهي الطعام، وتخزين المواد الغذائية، والعلف وإيواء الحيوانات، التي تستغل في أعمال الزاوية.[1]

2 -لمحة عن الزوايا في الجزائر خلال العهد العثماني:

3 1 -انتشار الزوايا بالجزائر و أنواعها:

لم تظهر الزاوية لدى المسلمين، كمركز ديني تعليمي إلا بعد ظهور الرباط، وقد اتخذت الزاوية عدة تسميات منها التكية (جمع تكايا)، وخوانق أو خانقانات، وتسمى بالمغرب "دار الكرامة"،[2] فهي تشبه الأديرة في العصور الوسطى باعتبارها مدرسة دينية ودار مجانية للضيافة،[3] ومنذ القرن 6هـ/12م ظهر في العالم الإسلامي نوع آخر من الزوايا التابعة للطرق التي اتخذها شيوخ الطرق مكانا للقاء من يرغب في إتّباع طريقتهم.[4]

حلت الزاوية في الجزائر محل الرباط تدريجيا منذ القرن 15م واستمرت في التطور حتى استقرت وظائفها النهائية في العهد العثماني على يد الطرق الصوفية، والمرابطين، لهذا كان اسم "الزاوية" يطلق على مقر المرابط في حياته أو بعد مماته، وقد يكون أسسها بنفسه أو أسست على ضريحه.[5] تبيض بالجير عادة، حملت اسم مؤسسها أو المنطقة المتواجدة بها أو اسم الولي الدفين بها، وأحيانا حملت اسم فئة اجتماعية مثل زاوية الأندلسيين وزاوية الأشراف بمدينة الجزائر.[6]

لقد شهدت الزاوية في المغرب الإسلامي عامة والجزائر خاصة منذ القرن 15م نموا سريعا وانتشارا واسعا، نتيجة الأوضاع المتدهورة التي عاشتها الجزائر، خاصة مع نهاية القرن 15م ومطلع القرن 10هـ/16م، حيث عاشت فراغا سياسيا رهيبا إثر ضعف الدولة الزيانية، وهو ما أدى إلى تدهور الأوضاع في جميع المجالات، نتيجة الصراعات الداخلية التي أدت إلى الفوضى، مما أدى إلى ظهور وحدات سياسية مستقلة تحت حكم قبلي يتزعمها شيوخ القبائل أو شيوخ الدين، ففي هذه الفترة ورغم وجود دول بمنطقة المغرب الإسلامي، إلاّ أنها كانت دولا بالاسم فقط، حيث شهدت استقلال القبائل التي تصارعت فيما بينها. ولم ينج من هذه الظاهرة إلا المدن وما جاورها،[7] وهو ما فسح المجال للقائمين على الزوايا لسد هذا الفراغ ، نتيجة حاجة الناس لمن يؤطرهم ويوجههم.

وقد تزامن هذا الضعف مع تعرض عدة مدن ساحلية للتهديدات الإسبانية، وعجز السلطة السياسية الحفصية والزيانية في صدها. وهو ما أدى بالقائمين على الزوايا على إحياء الرباط كرد فعل على ضياع الأندلس وعلى الغزو الإسباني للسواحل

---

[1]- يحي بوعزيز، أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين 19-20م"، **الثقافة**، العدد 63، 1981م، ص15، 16.

[2]- محمد حجي: الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، المغرب، 1988م، ص21-24.

[3]- دائرة المعارف، ج17، ص 232.

[4]- محمد رزق عاصم، المرجع السابق، ص 128.

[5]- مختار الطاهر الفيلالي، نشأة المرابطون والطرق الصوفية وأثرها في الجزائر خلال العهد العثماني، ط1، دار الغرافيكس، الجزائر، 1976م، ص27.

[6]- Devoulx(A), Les edifices religieux de l'ancien Alger, Bastide, Alger, 1870, pp11, 12.

[7]- أبو القاسم سعد الله، على خطى المسلمين، حراك في التناقض، ط1، عالم المعرفة، الجزائر، 2009م، ص 189.

الجزائرية، لتجمع الأربطة بهذا بين العبادة والتعليم والجهاد، فالأربطة لعبت دورا مهما في الحياة الدينية والثقافية والسياسية، إلى جانب دورها الدفاعي العسكري، حيث برزت كمؤسسة عسكرية ودينية، تأسست بالدرجة الأولى من أجل الدفاع عن الحدود مع أداءها وظيفة التعليم، أين كان الطلبة جنودا وعلماء في نفس الوقت، ومكان للعبادة والخلوة والزهد. وبعد انتهاء الغزو الأجنبي تحول المرابطون إلى دعاة لنهضة دينية حديثة في شمال إفريقيا، وتحول معها الرباط إلى مؤسسة دينية حقيقية وهي الزاوية.[1]

ويرجع ظهور الزواية بكثرة كذلك إلى وصول الأسر المرابطية إلى الجزائر قادمة من المغرب الأقصى، والتي أطلقت أسمائها على قبائل بأكملها، هذه الأسر أسست بدورها زوايا، أصبحت مراكز لاستقطاب القبائل في ظل غياب سلطة مركزية قوية، وهذا من خلال العمل على الوعظ والإرشاد والتعليم، وهو ما جعل القبائل تلتف حولها وتحمل أسماء هذه الأسر،[2] التي عملت على تكوين إمارات أو مشيخات ذات منشأ ديني، وهو ما أدى إلى ظهور كيانات ومشيخات دينية شريفية، مثل مشيخة الثعالبة بمدينة الجزائر، إمارة كوكو غرب منطقة القبائل، ترأسها أسرة ابن القاضي وإمارة بني عباس تحت حكم أسلاف المقرانيين،[3] وغيرها من الأسر المرابطية التي عملت على كسب ثقة الناس من خلال التوسط للإصلاح بين السكان، وجعل زواياها مراكزا لبث العلم، وتيسيرها التعليم للجميع.[4]

قسمت الزوايا في الجزائر إلى نوعين: زوايا حرة لا تنتسب إلى ولي أو طريقة صوفية. يدير شؤونها مجلس يتكون من الطلبة،[5] مثل زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي، وهي تختلف عن زوايا المشايخ وزوايا المرابطين، فهي لا تخضع لشيخ أو مرابط بل تسير من طرف طلبتها المنتمين إليها، فالطلبة وحدهم المسئولون عن تسيير شؤون الزاوية داخليا وخارجيا، ولهم السلطة الكاملة والاستقلال التام في تسييرها، والشيء الوحيد الذي يخضع له الجميع ويمتثلون له هو قانون الزاوية، أو النظام الداخلي للزاوية.[6]

أما النوع الثاني فهو عكس النوع الأول يخضع في تسييره للشيخ المؤسس أو خلفه، كما نجد فيها النوع الخلواتي وغير الخلواتي، فالأول (زوايا الطرق) يدّعي شيوخها المعرفة بالأسرار الغيبية لهم مريدن وورد خاص بهم، ويسمون بالطرقيين ويقومون "بالحضرة" لهم فروع في كامل أنحاء البلاد،[7] والشيخ هو من يضع القوانين المسيرة للزاوية، كما أنه يختار "مقدمين" له من بين بعض الطلبة الطلبة يكلفهم بمراقبة وتسيير الطلبة ومراعاة أوقات التدريس صلاة الجماعة وقراءة الحزب الراتب، وكل من يتخلف عن هذه المواعيد بدون استشارة "المقدم" يتعرض لعقوبة مالية أو بدنية حسب قانون الزاوية المعمول به، وكل ما يدخل زوايا الطرق من

---

(1)–دوتي إدموند، الصلحاء، تر، محمد ناجي بن عمر، أفريقيا الشرق، المغرب، 2014، ص53.

(2)- معاشي، معاشي جميلة، الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق في القرن 10هـ/16م إلى القرن 13هـ/19م، د.م.ج، الجزائر، 2001م ، ص 25، 26.

(3)– أحمد توفيق المدني، حرب ثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492–1792م، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1965م،، ص 93.

(4)- Bodin (M), traditions indigenes sur Mostaghanem", in **B.S.G.A.O**, 1925, p25.

(5) – بوعزيز، أوضاع المؤسسات، ص15.

(6) – محمد نسيب، زوايا العلم والقرآن، دار الفكر، الجزائر، 1988، ص 108.

(7) – بوعزيز، أوضاع المؤسسات، ص15،16.

إيرادات هي ملك لشيخ الطريقة، وله الحق المطلق في التصرف فيها، وهو المشرف على التدريس بها وحتى تحديد مواد التدريس، ودفع أجور المعلمين والمقرئين.[1]

أما النوع غير الخلواتي (زوايا المرابطين) ليس لهم طريقة صوفية ولا مريدون كزوايا المشايخ، لا يدعي شيوخه معرفة الغيب، وهم أيضا لهم ورد خاص،[2] فهي تعتبر ملكية جماعية، العمل فيها يكون تطوعي لوجه الله خدمة للعلم وكتاب الله، ولا يحق للورثة أخذ أي شيء من مداخيل الزاوية من صدقات وأوقاف وغيرها،[3] ومواردها محبسة على طلبة العلم، ولا يحق للمرابطيين والأحفاد التصرف في أموالها، فالزكاة والصدقات والتبرعات والنذور والهبات سواء كانت نقودا أو حيوانات هي للزاوية، وحق لطلبة العلم والفقراء الذين يقصدون الزاوية،[4] ففي هذه الزوايا كان المرابط يتولى التعليم بنفسه إن كان مثقفا، وفي حالة العكس يوظف من ينوب عليه في التعليم.[5]

انتشرت الزوايا في هذه الفترة في كامل أنحاء البلاد، فمدينة الجزائر وحدها كانت تضم عددا كبيرا من الزوايا والأضرحة، حيث أحصى بها "دوفو"(Devoulx) سنة 1830م، 32 ضريحا و12 زاوية،[6] منها ما هو منسوب إلى الأفراد كزاوية سيدي عبد الرحمان الثعالبي وزاوية الولي دادة، وزاوية عبد القادر الجيلاني وزاوية شيخ البلد، وزاوية القشاش ومنها ما هو منسوب إلى الجماعة كزاوية الأشراف وزاوية الأندلس.[7] لكن أغلبها تعرض للهدم بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر.

أما قسنطينة فقد وجد بها 16 زاوية، منها ما كان تابعا للعائلات الكبرى بالمدينة، مثل زاوية أولاد الفكون وزاوية بن نعمون وزاوية أولاد جلول،[8] كما اشتهرت أيضا تلمسان بزاوياها التي وصلت إلى أكثر من 30 زاوية أشهرها زاوية عين الحوت[9]، إضافة إلى عدة زوايا أخرى بالغرب الجزائري كالزاوية الموجودة في جبل بني راشد، والتي كان لها دور بارز في نشر العلم في الريف، وقد تخرج منها عدد من العلماء والفقهاء.[10]

وتعد منطقة القبائل أغنى المناطق بالزوايا، حيث تصل حتى 50 زاوية أشهرها زاوية "تيزي راشد" المعروفة بزاوية "إبن أعراب"، وهي الزاوية التي درس بها الباي محمد الذباح، وزاوية سي علي الشريف بآقبو وزاوية آث منصور ببني جناد وزاوية الأزهري بآيت

---

(1)- محمد نسيب، المرجع السابق، ص 106.

(2)- بوعزيز، أوضاع المؤسسات، ص16.

(3)- زروق جيجيك،المرابطون والطرق الصوفية في الجزائر من خلال كتابات الفرنسيين، ماجستير تاريخ حديث ومعاصر، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2001م، ص 91.

(4)- محمد نسيب، المرجع السابق، ص 108.

(5)- بوعزيز، أوضاع المؤسسات، ص16.

(6)- Devoulx, Les édifices …, p03.

(7)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 263 و269.

(8)- نفسه، ص 264.

(9)- Emerit(M), l'Algerie à l'époque d'Abd-El Kader, la Rose, Paris, 1951p13.

(10)- رشيدة شدري معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر -فترة الدايات- 1671-1830م، رسالة ماجستير، تاريخ حديث، جامعة بوزريعة، الجزائر، 2006م، ص57.

إسماعيل[1]، هذا دون أن نغفل الدور الذي قامت به زوايا الصحراء كزاوية عين ماضي التي وصل تأثيرها حتى الحدود الجزائرية المغربية. كما كانت هناك زوايا أخرى لها تأثير بارز على الحياة الثقافية والاجتماعية كزاوية القادرية بالقيطنة، وزاوية قرومة بمنطقة القبائل وزاوية طولقة وغيرها من الزوايا الأخرى.[2]

كانت هذه الزاويا غالبا ما تضم غرفا لإيواء الطلبة وأخرى للدراسة، وتكون تحت إشراف المقدم أو الوكيل،[3] وأما بعضها فكان فكان الإشراف عليها متوارثا في العائلة، ويساعد خليفة المرابط الذي يتولى التعليم أو الإشراف على مدرسيها الوكيل وعدد من الخدم،[4] كما وجدت بها مخازن للمؤن من أجل تمويل الطلبة والفقراء،[5] والتكفل بالأرامل واليتامى وعابري السبيل.

أما فيما يخص الإنفاق فقد اعتمدت هذه الزوايا في الإنفاق[6] على الطلبة وعلى العلماء المدرسين بها على الأوقاف والهبات وأموال الزكاة، والهدايا التي يقدمها أفراد القبيلة إضافة إلى ما يجمعه الطلبة من المناطق التي تخضع لنفوذها، دون أن ننسى تبرعات المسافرين والزوار الذين يقصدونها للتبرك بضريح مؤسسها،[7] كما كانت تخصص لها أراض يعود مردودها لصالح المدرسين والطلبة،[8] وغالبا ما تكون هذه الأراضي محيطة بها يشتغل فيها رجال الزاوية،[9] كما تجدر الإشارة هنا إلى أن حبوس الزوايا أماكن لا يجرؤ أحد على التعدي عليها.[10] بسبب الأحكام الخاصة بحرمة الوقف، ونتيجة اعتبار الزوايا مكان مقدس لا يجوز المساس بحرمته.

3 2 أسباب انتشار الزوايا بالريف:

احتلت الزاوية في العهد العثماني خاصة بالأرياف، الصدارة بين مراكز الثقافة والتعليم،[11] ويعود هذا الأمر إلى غياب المؤسسات الثقافية الأخرى وهو ما سمح لها بالقيام بوظيفة تعليمية إضافة إلى وظيفتها الدينية، فمثلت الزاوية بالريف، المسجد والمدرسة في

---

[1]- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 265، 266.

[2]-العيد مسعود، المرجع السابق، ص63.

[3]- Delpech, "la Zaouia de Sidi Ali Ben Mousa ou Ali N' Founas",in **R.A,** N°18,1874,p87.

[4]- مختار الطاهر الفيلالي، المرجع السابق، ص27.

[5]- Layer (E), Confreries religieuses musulmanes et marabouts leur etat et leur influence en Algerie Imp, Cagniard1916, p 23.

[6]- لقد تعددت مصادر دخل الزوايا من الوعدة، الزيارة، الزردة، الحضرة، السفرة، الغفارة... وغيرها للمزيد ينظر رشيدة شدري معمر، السلطة الروحية والسلطة السياسية في الجزائر العثمانية "1518-1830م، أطروحة دكتوراه في تاريخ الحديث، جامعة الجزائر 02، 2018م.

[7]- ابن سحنون أحمد الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح. وتقديم المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1979م، ص78.

[8]- Emerit, L'état Intellectuel .., p06.

[9]- Mercier (E.), Etude sur la confrerie des khouans de sidi Abd- El Kader, p17.

[10]- Saidouni, Nacereddine, L'algérois rural à la fin de l'époque ottomane de (1791-1830), Dar al-Gharb al-Islami, Beyrouth, Liban, 2001, p303.

[11]- محمد سي يوسف نظام التعليم في بلاد الزواوة بايالة الجزائر خلال العهد العثماني" **الحياة الفكرية في الولايات العربية**، مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، تونس، 1990م، ج1، ص193.

آن واحد،[1] فهي مقر للعبادة والدراسة، كتدريس علوم الدين والفقه، ومبادئ القراءة والكتابة، إضافة إلى كونها مأوى لعابري السبيل،[2] كما عملت على دمج فئات المجتمع بغض النظر عن الانتماء العرقي أو الجهوي أو حي الإقامة أو المهنة.[3] فقد جمعت الزاوية في تعليمها بين التربية الروحية والعسكرية كونها مبنية على نشر الدعوة الصوفية والتحضير للجهاد،[4] فهي بديل متطور للرباط،[5] كما أشرنا سابقا، ويرجع كذلك انتشارها بالريف أكثر من المدينة إلى هجرة بعض العلماء من المدن نحو الريف هروبا من تعسف السلطة أو بغية في نشر العلم، أو رجوع بعض الطلبة إلى مسقط رأسهم بالريف بعد تلقيهم العلم في المدينة، وتأسيسهم الزوايا والتفرغ لتعليم الطلبة.

كما كان للطرق الصوفية دور في انتشار الزوايا بالريف، وهذا نتيجة انتشار التصوف وتطور الحركة الصوفية تطورا مفاجئا، أين استغل أتباعها الوضع السياسي السائد بسبب ضعف السلطة المركزية، وكثرة الظلم والفساد، لتأسيس الزوايا خاصة بالريف، التي سهلت من انتشار التصوف والطرق الصوفية، خاصة منذ القرن 16م أين شكلت هذه الزوايا مركزا للإيواء والتعليم، واعتبر الشيخ والقائمين عليها الحاملين للدين والتقوى،[6] لتأخذ بهذا شكلا تثقيفيا وروحيا وتربويا وجهاديا.[7] وتصبح الزوايا بهذا أماكن للتعبد ومدارس للتعليم وحتى فنادق للإيواء خاصة لعابري السبيل.[8]

وبالتالي ونتيجة الأسباب السابقة كان انتشار الزوايا كبيرا على مستوى الأرياف مقارنة بالمدن، أين تغيب المؤسسات التعليمية، خاصة المدارس لكن هذا لا ينفي وجودها بالمدينة، وقيام بعضها بدور ايجابي في التعليم بجميع مستوياته، رغم أن معظمها لم تمارس التعليم نتيجة انتشار الكتاتيب والمساجد والمدارس، ومن أهم الزوايا بالمدن نجد الزاوية القشاشية بمدينة الجزائر، التي تحولت مع الوقت إلى معهد عالي، ونجد كذلك زاوية الفكون بقسنطينة، وزاوية عين الحوت بتلمسان وزاوية محمد التواتي ببجاية وغيرها،[9] كما أن بعضها ورغم عدم مساهمته في العلم إلا أنها أوت أهله، بحيث وجدت بمدينة الجزائر زاوية واحدة مخصصة للطلبة الفقراء المقيمين بالمدينة، وخمسة زوايا مخصصة لإقامة الطلبة الوافدين عليها،[10] منها ثلاث زوايا لطلبة الناحية الغربية وزاويتين لطلبة الناحية الشرقية.[11]

---

(1)- Emerit (M.), "L'état Intellectuel, et moral de l'Algérie en 1830 " in **R.T.A.S.M.P**, 2ème semèstre 1954p10.

(2)- Bodin (M), op.cit, p17.

(3)- Stambouli (F.)/Zghal (A.), « La vie urbaine dans le Maghreb précolonial », in **ANN .AFR, N**, N°11, 1972, p207.

(4)- عبد الحميد مزيان، "المؤسسات الثقافية قبل الاستعمار"، **مجلة التاريخ**، العدد 22، 1986م، ص18.

(5)- العيد مسعود، "حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني"، **سرتا**، العدد 03، 1980م، قسنطينة، الجزائر، ص69.

(6)- Braudel (F), "Les Espagnols et l'Afrique du Nord de 1492 a 1577", **R.A**, T69, 1928, p219.

(7)- عبد الحميد مزيان، المرجع السابق، ص 08.

(8)- شارل أندري جوليان افريقيا الشمالية تسير القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية، تر. سليم المنجي وآخرون، الدار التونسية للنشر، تونس، 1976م، ص 26.

(9)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 269.

(10)- Saidouni Nacereddine, L'algérois rural à la fin de l'époque ottomane de (1791-1830), Dar al-Gharb al-Islami, Beyrouth, Liban, 2001, p 317.

(11)- أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص 164.

3 3 -التعليم بالزوايا:

باعتبار الزاويا المؤسسة التعليمية الوحيدة التي تقوم بتدريس الطلبة من المرحلة الابتدائية غالبا حتى المرحلة العالية فقد كان يتم تقسيمهم إلى مجموعات وكل مجموعة بها ثلاث فئات: المجموعة الأولى: تضم فئة المبتدئين (من ختم سورة البقرة، وفئة المتوسطين من ختم البقرة وشرع في الإعادة، وفئة المنتهين من ختم القرآن كله، وبقى له الرواية والتجويد، أما المجموعة الثانية: فتضم كل من فئة الأجرومية ومتن ابن عاشر، وفئة القطر والرسالة وفئة الألفية.[1]

أما منهاج الدراسة في الزوايا خلال العهد العثماني فلا يختلف عن بقية المؤسسات التعليمية الأخرى، فكلها كانت تدرس القرآن الكريم، الحديث، النحو، اللغة، الفقه، التوحيد، الفلك، الحساب...[2] حيث يتعلم الطفل في المرحلة الأولى، حفظ القرآن، وتعلم الحروف الهجائية،[3] عن طريق الكتابة في الألواح المصلصلة والقلم القصبي،[4] اعتمادا على المداد المستخرج من صوف الضأن بعد حرقه،[5] وبعدما يتلقى الطالب تعليمة الابتدائي يمكنه أن يبقى لإكمال تعليمه العالي ما بين 03 إلى 06 سنوات، حسب رغبة الطالب في البقاء لنيل المزيد من المعارف التي تقدم بالزوايا التي بها معاهد عليا،[6] أو يتوجه للمساجد الكبرى، حيث كان يقدر عدد الطلبة في التعليم الثانوي والعالي ما بين 600 إلى 800 طالب من كل بايلك.[7]

ففي مرحلة التعليم الثانوي والعالي، كان التعليم يرتكز على الشرح والإملاء، فكل مدرس له "مسمع" يقرأ له نصا أو جزءا من الكتاب المراد دراسته، ثم يقوم بشرحه في جلسة واحدة أو عدة جلسات يختم ذلك بإملاء ملخصات على الطلبة الذين يقومون بتسجيلها، خاصة إذا كان واسع العلم، وبهذا يكونوا قد أسهموا في حركة التأليف المنتشرة آنذاك.[8] فأثناء الدرس كان الطلبة يجتمعون في حلقة حول شيخهم، الذي يقوم بالشرح والإملاء وطرح بعض الأسئلة على الطلبة، كما يتلقى هو بعض الأسئلة من الطلبة بعد انتهاء الدرس.[9] فالتعليم في هذه المرحلة يقوم على الحفظ واستظهار المتون نظما وشعرا، إضافة إلى تدريب الطلاب على الفهم، والبحث والمناقشة، وهي طريقة تعليمية أرساها "أبو عبد الله الشريف التلمساني" في القرن 14م، ليتوارثها العلماء بعده جيلا بعد جيل، لهذا نجد الجزائريين يعيبون على طلبة فاس اعتمادهم على الحفظ والنقل وعزوفهم عن إعمال العقل وتدريبه.[10]

---

[1]- محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص 199.

[2]- العيد مسعود، المرجع السابق، ص 65.

[3]- محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص193.

[4]- محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح وتقديم محمد بن عبد الكريم، ط2، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981م، ص58.

[5]- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، ص 339.

[6]- Saidouni, Op. Cit, p 301 et 319.

[7]- Emérit, l'état…, p 06.

[8]- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، ص 345.

[9]- محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص 196.

[10]- العيد مسعود، المرجع السابق، ص 66.

وهذا التعليم العالي يسمح للطلبة المتخرجين من هذه المؤسسات بفتح مدارس وتعليم الأطفال الصغار،[1] أو تدريس القرآن بالمساجد أو العمل كخوجات أو مؤدب، وهذا بعد حصولهم على إجازة من الأستاذ تثبت إكمالهم لدراستهم،[2] وهذا القدر من العلم والمعرفة التي يحصل عليها الطلبة تمكن بعضهم من مواصلة مهمة نشر الدين والعلم في قراهم، ومناطق سكناهم،[3] مثل مثل زاوية سيدي علي بن يحي التي تخرج منها العديد من الطلبة والعلماء الذين قاموا بدورهم بنشر التعليم استكمالاً لرسالة الزاوية.[4]

3 -الدور الديني والتعليمي للزوايا:

عملت الزوايا في العهد العثماني على أن تأخذ على عاتقها تعليم الناس ونشر الوعي الديني بينهم، وسد حاجة السكان في تعليم أبنائهم في ظل غياب السلطة، التي لم تهتم بالتعليم والتوجيه خاصة في الريف، لأنّ سياستها مع الأهالي كانت سلبية ارتكزت على جباية الضرائب فقط، فحسب "الفيلالي" فإدارتها كانت إدارة استهلاك لا إدارة إنتاج"، لهذا عمل القائمون على الزوايا خاصة المرابطين، على ملء الفراغ السياسي والثقافي في المجتمع الذي عاش في عزلة عن الحكومة التركية، بالرغم من ثقل كاهل سكان الأرياف بالهدايا والعطايا المقدمة للمرابطين إلاّ أنّهم كانوا بمثابة البديل لهم عن العثمانيين في التعليم والتوجيه.[5]

لقد كانت هذه الزوايا مقصدا للعديد من الطلبة، فزاوية سيدي التواتي ببجاية كان يدرس بها نحو 200 طالب، وهي تعد مركزا لتخريج القضاة والعلماء لكامل البلاد،[6] في حين زاوية جماعة السحاريج، ببلاد القبائل والتي لازالت قائمة إلى يومنا هذا، كان يدرس بها 500 طالب وتقوم بالإنفاق عليهم كلهم، وزاوية نقاوس فهي تنفق على 200 طالب[7]، أما زاوية سيدي منصور فقد كان يقصدها من 100 إلى 150 طالب، في حين زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي، والتي تميزت بمستوى تعليمي عالي كان يدرس بها 125 طالبا ويدرّس بها 25 مدرسا،[8] أما زاوية أسرة المجاجي (أبهلول) بتنس كان يقيم بها نحو 300 طالب ويدرسون مختلف العلوم الدينية من فقه وحديث تفسير وعلوم اللغة.[9]

---

(1)- Daumas(E), Mœurs et Coutumes de l'Algérie, Intrd. Abd-delkader djeghloul, Ed. ENEP, Alger, 2006, p 209.

(2)- Emérit, l'état…, p 06.

(3)- Ibid، p 12.

(4)- محمد نسيب، المرجع السابق، ص 91.

(5)- مختار الطاهر الفيلالي، المرجع السابق، ص 30.

(6)- Feraud (C.H), Histoire des villes de la province de Constantine, Bougie, Arnault, Paris, 1869, p217.

- Feraud (CH), Histoire de Bougie, présentation de Nedjema Abd-El-Fatah, Ed. Bouchene, 2001, p129.

(7)- Dr SHAW, Voyage dans la régence d'Alger, trad de l'Anglais par J.Mac.Carthy 2ème ed. Bouslama, Tunis, 1980, p350 et 393.

(8)- SALHI (M. B), "Confreries religieuses et champs religieux en grande Kabylie au milieu du xxeme Siècle, La Rahmanyya", in **Annuaire de l'Afrique du Nord**, N°33, 1994, p258.

(9)- عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر من البدايات إلى الحرب العالمية الأولى، دار الخليل القاسمي، الجزائر، 2007م، ص342.

والملاحظ أيضًا أنّ الزوايا المشهورة خاصة ذات التعليم العالي، والتي كانت تستقبل الطلبة لاستكمال دراستهم العليا، كان يقصدها الطلبة حتى من تونس، طرابلس، مصر، المغرب مقابل 4 بوجو ونصف، طول فترة مكوثهم بها.[1] فزاوية سيدي محمد بن أبهلول المجاجي بتنس، كانت تستقطب الطلبة الراغبين في المزيد من المعارف حتى من خارج مجالها الجغرافي، مثل سعيد قدورة الذي ارتحل من مدينة الجزائر للدراسة بها، وكما أنها كانت مقصدًا للطلبة من مصر وتونس،[2] وهو ما جعل "رين" يشبهها بجامعات أوربا في العصور الوسطى.[3]

فهذه الزوايا كانت الإطار العام للحياة الثقافية بالريف، حيث فتحت أبواب العلم والمعرفة للطلبة وأنفقت عليهم بسخاء،[4] وهذا بعد تحول زوايا المرابطين الجهادية (الأربطة) إلى مراكز للتعليم، فكانت المباني جاهزة، ولم تتطلب حركة التعليم إلاّ جلب الطلبة إليها فقط،[5] وأن تقدم لهم تعليمًا في العلوم الدينية واللغوية وتحفيظ القرآن والحساب،[6] لذلك كان التعليم الابتدائي خاصة منتشر في كل دوار أو قرية، وفي هذه الزوايا كان الطالب يستفيد من المبيت طول فترة دراسته،[7] فمثلاً مدينة الجزائر كان كان بها 06 زوايا، منها 05 مخصصة لإقامة الطلبة الوافدون وواحدة للطلبة المقيمين بالمدينة،[8] أما بقسنطينة فقد وفرت زواياها زواياها 16 المبيت للطلبة الذين كان من سكان الأقاليم البعيدة.[9]

فبفضل مؤسسة الزوايا، سواء بالريف أو المدينة انتشرت المعارف والثقافة الدينية، ممّا حدّ من انتشار الأمية، كما ساهمت في تخريج عدد من الكتاب والفقهاء الذين تولوا الخطط الدينية والعلمية كما أنّ أغلب علماء الجزائر في العهد العثماني تخرجوا من الزوايا مثل سعيد قدورة، أبوراس الناصري، الأمير عبد القادر، محمد بن علي السنوسي....[10]

فالزوايا وخاصة زوايا المرابطين ومنذ القرن 16م حتى القرن 18م،كانت أداة لتعميق الشعور الإسلامي في المناطق الجبلية، التي ظلت بعيدة عن تأثير الفقهاء وفتاويهم، فقد كانت الملجأ المعنوي والروحي والمؤطر الأساسي للسكان، وعامل لنشر المعارف

---

(1)- Daumas, Mœurs et Coutumes, pp 207,208.

(2)– العيد مسعود، حركة التعليم، ص 61.

(3)- Rinn Louis, Marabouts et Khouans, 2tude sur l’islam en Algérie, Adolphe Jourdan, Alger, 1884, p18.

(4)– بوعزيز، أوضاع المؤسسات، ص18.

(5)– العيد مسعود، حركة التعليم، ص 61.

(6)- Haedo, (F.D.), de Topographie et l’histoire général d’Alger, imprimé A.Valladolid EN 1612 Trad. de l’espagnol par MM. le Dr.Monnereau et A.Berbrugger, 1870, p 100. – بوعزيز، أوضاع المؤسسات، ص 16.

(7)- Saidouni, Op. Cit, p 317.

(8)- Emerit, l’état…, p 05.

(9)– سعد الله، محاضرات...، ص 164.

(10)– العيد مسعود، المرجع السابق، ص 63.

وغرس تعاليم الدين وتعميق الحس الديني في المجتمع الريفي،[1] أين عمل مرابطوها على إدخال القبائل إلى الإسلام وتعليمهم مكارم الأخلاق.[2]

أما زوايا الطرق الصوفية كالقادرية والرحمانية، فقد أعطت أهمية كبيرة لنشر التعليم، فهذه الأخيرة ربطت بين التربية الروحية والتعليمية، لهذا نجد كل شيوخها من العلماء، فهي تدرس العلوم الشرعية إضافة إلى تعاليم الطريقة، وقد تخرج على يد مؤسسها محمد بن عبد الرحمن الكثير من العلماء.[3]

فزوايا هذه الطرق، وإضافة إلى التعليم، عملت على تزويد المريدين أو الإخوان بالشعائر الدينية والأوراد التي تمكنهم من الارتقاء إلى السعادة في الدنيا والآخرة[4]، وكغيرها من زوايا المرابطين عملت على ربط المعارف بالتربية الروحية، حيث يكسب الطالب الصبر وقهر الغرائز والترفع عن الماديات، واحترام الناس والتضحية في سبيل الجماعة[5]، وتهذيب سلوكهم وتربيتهم على احترام الوقت والمواعيد وأداء الفرائض، وتقديم الخدمات داخل الزاوية خارج أوقات الدراسة.[6]

وحسب كوثراني: «أنّ بعض الطرق الصوفية المرتبطة بالأوساط التجارية كانت القوة الدافعة للتطور الثقافي داخل حلقات المساجد وخارجها...». وأنّ وجود شبكات من الطرق الصوفية عبر المراكز التجارية في العالم الإسلامي سهل من التبادل الفكري وتطوره،[7] وتحفيظ القرآن ونشر الإسلام وترسيخه بين مختلف الطبقات الاجتماعية، وحتى في المناطق النائية،[8] بين الجماعات البربرية، وتقريب عناصرها مشكلة وحدة متكاملة.[9]

وبالإضافة إلى هذا كانت زوايا هذه الطرق مخازن للكتب والمخططات في مختلف العلوم، وهذا راجع إلى اهتمام شيوخها وطلابها بالتعلم، والنسخ والنقل للكتب والجمع والشراء، رغم أنّ الكثير منها ضاع أو سرّب إلى أوربا بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر.[10]

---

(1)- Saidouni, Op. Cit, p 301 et 306.

(2)- Gsel S. Marçais .G et G. Yver, Histoire d'Algérie, Bovin, Paris, 1927, p 175.

– حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، لمحة تاريخية وإحصائية لإيالة الجزائر، تح. وتع. محمد العربي الزبيري، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1975م، ص 57.

(3)- Rinn, op.cit, p 461.

(4)– جوليان، إفريقيا الشمالية، ص 26.

(5)– عبد الحميد مزيان، المؤسسات، ص 19.

(6)– مريوش وآخرون، الحياة الثقافية في الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، 2007م، ص173.

(7)– كوثراني وجيه، السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1988م، ص38. هامش.

(8)– بوعزيز، أوضاع المؤسسات، ص 18. – يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين 19–20، عالم المعرفة للنشرو التوزيع، الجزائر،2009، ص354، 354.

(9)– الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ط2، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1965ج3، ص 250.

(10)– يحي بوعزيز،موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2001م،ج1، ص 223.– بوعزيز، أوضاع المؤسسات، ص 19.

إضافة إلى الدور الداخلي الذي لعبته هذه الطرق فإنّنا نجد أنّها كانت عامل مهم في نشر الإسلام، حيث ظهر شيوخها كدعاة وحاملي الإسلام والدعوة المحمدية في قلب الغابات الاستوائية،[1] لإفريقيا جنوب الصحراء كتمبكتو، السودان الشرقي والغربي، السينغال النيجر الغابون،[2] خاصة الطريقة التيجانية التي عملت على نشر الإسلام في هذه المناطق النائية التي لم ينلها الإسلام في العهود السابقة، انطلاقًا من القوافل التجارية،[3] أما الطريقة القادرية فقد وصلت هي الأخرى حتى غرب إفريقيا السوداء، عن طريق القوافل التجارية الصحراوية، المنطلقة من مدن الشمال الإفريقي، والتي كانت تضم دعاة ووعاظ وعلماء متصوفة عملوا على نشر الإسلام ومحاربة الوثنية.[4]

وبهذا فالزوايا وإضافة إلى بقية المؤسسات التعليمية الأخرى من مساجد ومدارس وكتاتيب، ومن خلال نشرها للمعارف والثقافة الدينية ساهمت في الحد من ظاهرة الأمية،[5] وهو ما جعل الفرنسيين يجمعون عند احتلالهم للجزائر على انتشار التعليم بها خاصة التعليم الابتدائي.

في الأخير ما يمكن أن نشير إليه هو أنّه ورغم الدور الإيجابي الذي لعبته الزوايا، من تحفيظ للقرآن وتعليم اللغة العربية ونشر الإسلام في المناطق النائية، وعمل القائمين عليها بدور الشرطة والقاضي بالمجتمع وإنهاء الخلافات بين أفراد المجتمع، ومحاربتها السلطة المستبدة داخليًا وخارجيًا، ومساعدتها للناس أيام الأزمات، إلاّ أنّ اعتمادها على المناهج التقليدية في التعليم خَلَّف جمودًا فكريًا وركودا ذهنيا، وانتشارًا كبيرًا للدروشة والخرافات بين أتباعها وبين الناس ذوي الأفق الفكري الضيق ممّا أعجزهم عن فهم التطور والإصلاح القائم في بلدان المشرق الإسلامي،[6] ذلك أنّهم كانوا يرجعون كل الأمراض إلى الجن، وعليه يجب إيجاد الدواء الدواء عن طريق التعويذات،[7] كما أنّ المنافسة بين العالم والمرابط أو بين الجامع والزاوية أجبرت علماء المساجد والمدارس على تبسيط آرائهم وطرقهم في التعليم، لذلك لا نستغرب «أنه عندما كانت شمس المعرفة في أوروبا تطل من وراء السحاب، كانت المعرفة في الجزائر تفر غارية وسط ضباب كثيف».[8]

فالاعتقاد المبالغ فيه في الشيخ وانتشار الزوايا والأضرحة، أدت إلى تبسيط المعرفة وغلق باب الاجتهاد، هذا أدى إلى الاكتفاء بالحد الأدنى من التعليم بطريقة تقليدية جافة وضيقة، فبدل أن يلتف الناس حول العلماء المتنورين في المدارس والمساجد أصبحوا

---

[1]- صالح بوسليم، محمد الزين، «حركة التصوف ونشاط الطرق الصوفية بإقليم توات»، **الحوار المتوسطي**، ع05 مارس 2013م، سيدي بالعباس، الجزائر، ص48.

[2]- مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 169.

[3]- Rinn, op.cit, p 425. – Depont (O), Coppolani (X), Les confréries religieuses musulmanes, A.Jourdan, Alger, 1897, p 424.

[4]- بوعزيز، موضوعات وقضايا، ص 447.

[5]- ناصر الدين سعيدوني، ولايات المغرب العثمانية الجزائر، تونس، طرابلس، ط2، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م ، ص 144.

[6]- بوعزيز، أوضاع المؤسسات، ص 18، 19.

[7]- Boyer(P), la vie quotidienne à Alger a la veille de l’intervention française, Imp, nationale Monaco, 1964, pp 206, 207.

[8]- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 48، 49.

يلتفون في الزاوية حول الشيخ أو المقدم، الذي تغلب على فكر غالبيتهم الخرافة وعلى أحوالهم التصوف البدعي، وهو ما كان سببا في تدهور مستوى التعليم.وأصبحت أغلب الزاوية، بذلك تتنافس في كسب الأتباع.

فمسألة النفوذ والزعامة وكسب الأتباع، كانت إحدى نقاط الخلاف بين أهل الزوايا من صوفية ومرابطين، وهو ما دفع "الفكون" للقول عنهم: «كانوا يبعثون أصحابهم في البلاد فيدعون الناس لإتباعهم...وصاروا يتغايرون تغاير الضرائر ويشتمون بعضهم بعضًا، وترى كل فريق مبغض للفريق الآخر، فلا تجد منهم مُوادًا لصاحبه ولا محبًا لجانبه، يتضاربون ويتشاتمون، كل عصابة وأتباع مع العصابة الأخرى، أمّا الرؤساء فيكفر بعضهم بعضًا ويلعن يعضهم بعضا...». منها ما حدث بين محمد الحاج الصحراوي وقاسم بن أم هاني من شتم وقدح في ورع بعضهما، واتخاذ كل منهم فريقا.[1]

وعلى الرغم من أن مؤسسي الطرق يعلنون إتباعهم لكتاب الله، إلا أنهم لا يتوانون في نشر تعاليم خاصة بهم كثيرا ما انحرفت عن الدين، حتى وصل ببعضهم إلى استغلال العامة واتخاذ التصوف وسيلة للرشوة والفساد، أو وسيلة لإقامة الحضرة ونشر البدعة.[2] والكسب والاسترزاق من خلال ممارسات وطقوس الطريقة، فمثلا الشيخ بوعكاز بقسنطينة كان يقول لزائريه «من أتى بلا شيء يمشي بلا شيء»[3]، وهذا عكس ما كانت عليه الطرق الرئيسية (الأم)، فهذه الطرق التي تفرعت جل رجالها أميون ينحدرون من أوساط شعبية نادرا ما اهتم أعضاؤها بالعلم، خاصة في وقت كانت هذا الأخير لا يسمن ولا يغني من جوع، لذلك اعتمدوا على السحر والشعوذة والخرافة لاستدراج الناس،[4] خاصة الطرق الكبرى منها ذات النفوذ الواسع، التي عملت على نسج شبكات حقيقية عن طريق الإخوان، لنشر طقوسها والترويج لمعارفها، حيث ترسلهم للمناطق البعيدة من أجل كسب الأتباع.[5]

لهذا فإن انحرف التصوف عن علوم الدين، وانحصاره في الأذكار والأوراد والاعتقاد في المرابط، وتقديس الأولياء، حد العبادة،[6] جعل تكريم أضرحة المرابطين ذو أبعاد لا متناهية في الأوساط الاجتماعية، حيث غدت القبور التي تضم رفاة مؤسسي الزوايا مزارا، كما أصبحت إطارا للعمل الديني والفكري، وهذا كله يرجع إلى انعدام الوعي الاجتماعي والفكري أو نقصه لدى العامة، مما فسح المجال للزوايا والقائمين على الأضرحة في خداع الناس بكرامات مصطنعة تتبع الأولياء لأضرحتهم كما كانت تنسب لهم في حياتهم عن حق أو باطل،[7] بفضل البركة التي يملكونها، مثال ذلك أن للولي القدرة على معرفة الغيب وعلى الإشفاء من الأمراض، وعلى النفع والضر، ومنح الحماية للأشخاص في حياته ومماته.[8]

---

[1]- عبد الكريم بن الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تح. وتع. أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1987م، ص142-140.

[2]- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 478.

[3]- الفكون، منشور الهداية، ص 134.

[4]- عمار هلال، الطرق الصوفية، ص 97، 98.

[5]- Saidouni, Op, Cit, p298.

[6]- يحي هويدي، المرجع السابق، ص 366، 367.

[7]- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 1985م، ج3، ص 545، 546.

[8]- شدري معمر رشيدة، السلطة الروحية...، ص 267 وما بعدها.

فهؤلاء المرابطون أو الصوفية هم من شهّر بالمقامات والقبور والاعتقادات حتى في الطبيعة كالأشجار وتقديم الوعائد والقرابين وبيع الشموع المباركة، واستعمال السحر والطلاسم والتمائم، وكل هذا من الانحرافات التي حاربها الرسول "ص".[1]

لهذا انغمسوا في التصوف البدعي (الخرافي)، واكتفت زواياهم بالتقليد وحصر المريد في علوم الطريقة، وما يقدمه الشيخ من أوراد، عقب كل صلاة أو في الخلوات حتى لقبوا "بالطرقيين"، لأن كل طريقة اتخذت لنفسها أورادا وطقوسا خاصة فرضتها على أتباعها، كالحضرة عند العلوية وحلقة البندير والسكاكين عند العيساوية والعمارية.[2]

إن انحراف بعض الزوايا عن المسار الصحيح والنهج القويم، الذي أسست لأجله أثرت سلبيًا على المجتمع وساهمت في تخلفه، رغم ما قدمته له من أعمال جليلة في جميع المجالات، وهذا بسبب طموح مؤسسيها وأحفادهم من أجل الزعامة، وحب الذات وتسخير المريدين والأتباع لخدمة الشيخ حتى صاروا عبيدًا عندهم،[3] حيث يجد الطلبة أنفسهم مجبرين على خدمة الزاوية وإن خالف طالب ذلك عرض نفسه للعقاب ويعد مروقا عن الدين ويحرم من البركة، وهذا ما جعل الطالب في بعض الزوايا يفني عمره في حفظ القرآن الكريم دون تدبره، ولا يسمح له بحضور دروس الفقه حتى يصير عمره أكثر من 30 سنة، وأحيانًا يصل حتى الكهولة ويعود إلى بلده،[4] وهذا كلّه يعود في الغالب إلى سوء تصرف الخلف (الأبناء والأحفاد) وابتعادهم عن الهدف الأساسي الذي أسست لأجله الزاوية، فعوض أن يعملوا على نشر الدين والعلم حسب تطورات العصر، نجدهم تشبثوا بالتقليد ونشروا البدع وممارسات لا تمت للدين بصلة، حتى يسيطروا على الأذهان، وليحافظوا على امتيازاتهم ومكانتهم، وهذا كلّه يعود إلى ضعف الوازع الديني والرصيد العلمي لديهم، وهو ما أثر سلبا على التعليم في الجزائر.

المراجع:

الكتب:

- إدموند دوتي، الصلحاء، تر، محمد ناجي بن عمر، أفريقيا الشرق، المغرب، 2014م.
- بوعزيز يحي، ثورات الجزائر في القرنين 19-20، عالم المعرفة للنشرو التوزيع، الجزائر، 2009م.
- بوعزيز يحي، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ج1، 2001م.
- الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ط2، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ج3، 1965م.
- حجي محمد: الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، المغرب، 1988م.
- حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ج3ن 1985م.
- حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، لمحة تاريخية وإحصائية لإيالة الجزائر، تح. وتع. محمد العربي الزبيري، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1975م.

---

[1]- أندري جوليان، افريقيا الشمالية، ص27.

[2]- يحي بوعزيز، أوضاع المؤسسات، ص 16، 17. - يحي بوعزيز، موضوعات، ص 202.

[3]- مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 174.

[4]- نفسه، ص 174.

– سحنون أحمد الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح. وتقديم المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1979م.
– سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ج1-5، 2008م.
– سعد الله أبو القاسم، على خطى المسلمين، حراك في التناقض، ط1، عالم المعرفة، الجزائر، 2009م.
– سعد الله أبو القاسم، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.
– سعيدوني ناصر الدين، ولايات المغرب العثمانية الجزائر، تونس، طرابلس، ط2، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م.
– شارل أندري جوليان افريقيا الشمالية تسير القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية، تر. سليم المنجي وآخرون، الدار التونسية للنشر، تونس، 1976م.
– الفكون عبد الكريم، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تح. وتع. أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1987م.
– الفيلالي مختار الطاهر، نشأة المرابطون والطرق الصوفية وأثرها في الجزائر خلال العهد العثماني، ط1، دار الغرافيكس، الجزائر، 1976م.
– القاسمي عبد المنعم، أعلام التصوف في الجزائر من البدايات إلى الحرب العالمية الأولى، دار الخليل القاسمي، الجزائر، 2007م.
– كوثراني وجيه، السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1988م.
– م.ث هوشما وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ج17، 1998م.
– محمد رزق عاصم، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، مصر، 2000م.
– محمد نسيب، زوايا العلم والقرآن، دار الفكر، الجزائر، 1988م.
– المدني أحمد توفيق، حرب ثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1965م.
– مريوش وآخرون، الحياة الثقافية في الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، 2007م.
– معاشي جميلة، الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق في القرن 10هـ/16م إلى القرن 13هـ/19م، د.م.ج، الجزائر، 2001م.
– منظور أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت، ج07.
– ميمون محمد الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح وتقديم محمد بن عبد الكريم، ط2، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981م.

– نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركيدار الحضارة، الجزائر، 2006م.

الرسائل والاطروحات:

– زروق جيجيك، المرابطون والطرق الصوفية في الجزائر من خلال كتابات الفرنسيين، ماجستير تاريخ حديث ومعاصر، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2001م.

– شدري معمر رشيدة، السلطة الروحية والسلطة السياسية في الجزائر العثمانية 1518-1830، أطروحة دكتوراه، تاريخ حديث، جامعة الجزائر2، 2018م.

– شدري معمر رشيدة، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر -فترة الدايات- 1671-1830م، رسالة ماجستير، تاريخ حديث، جامعة بوزريعة، الجزائر، 2006م.

المجلات:

– بوسليم صالح ، الزين محمد ، «حركة التصوف ونشاط الطرق الصوفية بإقليم توات»، **الحوار المتوسطي**، العدد 05، 2013م.

– بوعزيز يحي، أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين 19-20م"، **الثقافة**، العدد 63، 1981م.

– سي يوسف محمد، نظام التعليم في بلاد الزواوة باياالة الجزائر خلال العهد العثماني" **الحياة الفكرية في الولايات العربية**، ج1، 1990م.

– عبد الحميد مزيان، "المؤسسات الثقافية قبل الاستعمار"، **مجلة التاريخ**، العدد 22، 1986م.

– العيد مسعود، "حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني"، **سرتا**، العدد 03، 1980م.

Livres:

- Boyer (P), la vie quotidienne à Alger a la veille de l'intervention française, Imp, nationale Monaco, 1964.
- Daumas(E), - Mœurs et Coutumes de l'Algérie, Intrd. Abd-delkader djeghloul, Ed. ENEP, Alger, 2006.
- Depont (O), Coppolani (X), Les confréries religieuses musulmanes, A.Jourdan, Alger, 1897.
- Devoulx(A), -Les edifices religieux de l'ancien Alger, Bastide, Alger, 1870.
- Dr SHAW, Voyage dans la régence d'Alger, trad de l'Anglais par J.Mac.Carthy 2ème ed. Bouslama, Tunis ,1980.
- Emerit(M), l'Algerie à l'époque d'Abd-El Kader, la Rose, Paris, 1951.
- Feraud (CH), Histoire de Bougie, présentation de Nedjema Abd-El-Fatah, Ed. Bouchene, 2001.
- Feraud (C.H), Histoire des villes de la province de Constantine, Bougie, Arnault, Paris, 1869.
- Gesell, Gsel S. Marçais .G et G. Yver, Histoire d'Algérie, Bovin, Paris, 1927.
- Haedo, (F.D.),- de Topographie et l'histoire général d'Alger, imprimé A.Valladolid EN 1612 Trad. de l'espagnol par MM. le Dr.Monnereau et A.Berbrugger, 1870.
- Layer (E), Confreries religieuses musulmanes et marabouts leur etat et leur influence en Algerie Imp, Cagniard1916.

- Mercier (E.), Etude sur la confrerie des khouans de sidi Abd- El Kader.
- Rinn, Rinn Louis, Marabouts et Khouans, etude sur l'islam en Algérie, Adolphe Jourdan, Alger, 1884.
- Saidouni Nacereddine, L'algérois rural à la fin de l'époque ottomane de (1791-1830), Dar al-Gharb al-Islami, Beyrouth, Liban, 2001.
- Saidouni, Nacereddine, L'algérois rural à la fin de l'époque ottomane de (1791-1830), Dar al-Gharb al-Islami, Beyrouth, Liban, 2001.

Articles:

- Bodin (M), traditions indigenes sur Mostaghanem", in **B.S.G.A.O**, 1925.
- Braudel (F), "Les Espagnols et l'Afrique du Nord de 1492 a 1577", **R.A**, T69, 1928.
- Delpech, "la Zaouia de Sidi Ali Ben Mousa ou Ali N' Founas", in **R.A,** N°18,1874.
- Emerit (M.), "L'état Intellectuel, et moral de l'Algérie en 1830 " in **R.T.A.S.M.P**, 2ème semèstre 1954.
- SALHI (M. B), "Confreries religieuses et champs religieux en grande Kabylie au milieu du xxeme Siècle, La Rahmanyya", in **ANN.AFRN** .N°33, 1994.
- Stambouli (F.)/ Zghal (A.),« La vie urbaine dans le Maghreb précolonial »,in .**ANN.AFRN**, N°11, 1972.